صورة جديدة منمنمة[1]

من أسلوب التصوير البغدادي

تاريخها ٦٦٤ هـ (١٢١٧ ـ ١٢١٨ م)

تمثل النبي العربي

(في ثلاثة ألواح)

يحلو لي في مبتدأ هذه المحاضرة أن أشكر للصديق الأكرم أحمد بك عاصم ، المدير العام لدار الكتب المصرية ، أريحيته إذ أذن لي ، من صفة مضت ، أن أنقل بآلة التصوير الشمسي الصورة التي ستتعطفون بالنظر إليها على الفور .

إذ الزمن المقدر لي ها هنا قصير جداً ، فلست عارضاً عليكم سوى بيان يسير . على أن لي في هذه المنمنمة [2] مبحثاً مستفيضاً يتناول جميع وجوهها من أدب ودين ثم من فنّ وتمثيل . وهذا المبحث صادر لي رسالة مقبلة من رسائل المجمع العلمي المصري .

إنه لا يغيب عنكم أن أسلوب التصوير البغدادي المتعارف بلقب « مدرسة بغداد » ، تندرج تحته تلك المنمنمات التي زوّق بها المسلمون المخطوطات العربية في العراق والشام ومصر وغيرها ، أيام الخلافة العباسية في القرن السابع للهجرة (الثالث عشر للمسيح) .

هذا ، وإن أهل العلم بالفن الاسلامي مجمعون مع العالم الانجليزي توماس أرنلد[4] على أنه من المشكوك فيه أن يكون المسلمون حاولوا تصوير موضوع من الموضوعات الدينية في القرون المتقدمة . وعلى هذا قال العالم الفرنسي بلوشي [5] : « إن هذا لو كان جرى لكان يكون تدنيساً . » ومن هنا أن أقدم المنمنمات الإسلامية التي تمثل الرسول العربي

---

(١) مستخرج من مجلة المجمع العلمي المصري . الجزء ٢٨ ، الدورة : سنة ١٩٤٥ — ١٩٤٦

(٢) محاضرة ألقيت بالفرنسية على سبيل التعريف يوم ٢٧ مايو ١٩٤٦ في جلسة علنية منعقدة في المجمع العلمي المصري بالقاهرة . وهذه ترجمة المحاضرة .

(٣) انتزع هذه الكلمة بإزاء الكلمة الانجليزية Miniature ، وهي التصويرة الدقيقة التي تزين صفحة أو بعض صفحة من كتاب مخطوط . وفي لسان العرب (ج ١٦ ص ٧٣) وكتاب منمنم : منقش . ونمنم الشيء تنميماً ، أي رقشه وزخرفه . فالمنمنمة (بكسر النون الثانية) ترقيش وزخرفة الكتاب . والمنمنم (بكسر النون الثانية) Miniaturiste : صانعها . والمنمنة : L'art de la miniature صناعتها . والكتاب منمنم : بفتح النونين) à miniatures

(٤) انظروا كتابه « التصوير في الاسلام » ط أكسفرد ١٩٢٨ ، ص ٩٢ .

(٥) « التصوير الاسلامي » لندن ١٩٢٩ ، ص ٢٢ .

محمد بن عبد الله وقد وصلت إلينا إنما ترقى إلى فاتحة القرن الثامن الهجري ، داخلة في نطاق التصوير الفارسي ، على حسب ما أثبته أرلند [١] .

واليوم أقدم إليكم متحفية عربية من بدء القرن السابع الهجري ، ترجع الى الطريقة البغدادية العربية . وهي تعرض حادثاً من حوادث السيرة النبوية . وفيها يبدو الرسول ووجهه غير محجوب بنقاب كالذي يحجبه في طائفة كبيرة من المتحفات الفارسية اللاحقة .

إن هذه المتحفة تشغل صفحة كاملة . وقياسها (بأطراح الشريطين المؤخرفين) ١٨،٨ سنتمتراً طولاً و ١٤ سنتمتراً عرضاً . وهي تقع في وجه الورقة الثانية من مخطوط عربي محفوظ في دار الكتب بالقاهرة . والمخطوط رقمه ٥٧٩ أدب . وهو الجزء الحادي عشر من كتاب الأغاني لأبي الفرج الإصفهاني .

أمّا تاريخ هذا الجزء الحادي عشر فهو محدد في الثلاثة الأسطر الأخيرة المرقومة في ظهر آخر ورقة . ومنها يتبين أن هذا الجزء كتبه محمد بن أبي طالب البدري سنة ٦١٤ هـ أي ١٢١٧ — ١٢١٨ م . وفي ظهر المتحفة مباشرة يبتدىء نص هذا الجزء الحادي عشر بعنوان الفصل الأول . وهو — بعد البسملة — كما ترون : « خبر أساقفة نجران مع النبي صلى الله عليه وسلم » .

وهذا هو الخبر الذي تمثله المتحفة . وجوهر الخبر ما ورد في نص الأغاني بشأن « المتحفة » [٢] . والمتحفة التي أرادها وفد نجران حادث سابق لحادث « المباهلة » المشهورة : فهذا الرسول (الجالس في وقار وأبهة يعلوه ظلّان متقابلان فاشران فوق رأسه وهاج النصر) تراه يستقبل أسقف نجران وعاتبها للمجادلة في طبيعة عيسى بن مريم (سورة آل عمران ، الآية ٥٩ وما يليها) . إنّ المتحفة في حال من الحفظ جيدة على الإجمال ، مع شحوب في الأصباغ الرقيقة . ولكن مما يؤسف الأسف أن بعض السكارهين للتصوير أنبلوا بأيديهم عليها فشوّهوها ، فالأوجه — ولا سيما أوجه الرسول والملكين — محكوكة ملطخة . ومهما يكن من شيء فإن المتحفة لم يغير من أوضاعها الأولى أية معالجة متأخرة .

وإني أبادركم بأنا لا نعرف لهذه الصورة الفاخرة سابقاً كبيراً ولا لاحقاً من قبل ولا من بعد [٣] وهذا حتى الآن — ريثما تظهر أصلي قد يكون المصورون المتحفيون احتذوه من عهد إلى عهد

إن هذه المتحفة مطوية غير منشورة . ثم إنها مهملة في المصادر والأثبات المتحفية

---

(١) « التصوير في الإسلام » ص ٥٣ وما يليها .

(٢) انظروا ج ١٠ ، ص ١٤٣ وما يليها ، من الأغاني ، ط بلاق .

(٣) أن هذه المتحفة تشابه الصورة التي تمثل مشهد « المباهلة » في مخطوط « الآثار الباقية » للبيروني (انظروا A Survey of Persian Art ج ٥ لوح ١٨٢٥) .

التي سنفيها المتخصصون من الباحثين [١] . بل هي غير مذكورة في فهرس « دار الكتب » القديم والحديث على السواء [٢] . وأخطر من هذا أن في « بيان » الجزء الثاني من كتاب الأغاني الذي طبعته دار الكتب سنة ١٩٢٨ (س ج ال و) تفصيلاً للأجزاء المخطوطة المحفوظة في الدار تحت رقم ٥٧٩ أدب . وهي الجزء الثاني والرابع والحادي عشر والثالث عشر . ففي هذا البيان وصف للمنمنمتين اللتين تزينان أول الجزأين : الثاني والرابع . وأما منمنمة جزئنا الحادي عشر فلا ذكر لها على الاطلاق [٣] .

والظاهر أن من طريق هذا البيان الناقص نشرت المنمنمتان اللتان تزينان الجزأين الثاني والرابع ، في القاهرة [٤] ثم في ڤينة [٥] ، وأدرج ذكرهما في اثنين من المصادر المستقصية [٦] .

وقد تكررت في الأمر ، فبدا لي أن بحث الباحثين لم يذهب حتى فحص الأجزاء الثلاثة المخطوطة فحصاً دقيقاً . فلم يكن بد إذن من التنقيب . فأقبلت على المراجعة إقبال محاول ، أحقق ذلك البيان المنشور في الجزء الثاني المطبوع سنة ١٩٢٨ ، لأن دقته كانت موضع شك عندي : فيم الجزء الحادي عشر المخطوط لا يتزين أوله بمنمنمة ؟ وهكذا استطعت — والجزء الحادي عشر بين يدي — أن أتحقق من قلم النسيان وثيقة إنما اكتشافها بعد في عمر التصوير الديني الإسلامي قرناً (من بداية الثامن الى بداية السابع) ويستخرج أثراً فريداً يمثل النبي في زمن التصوير السابق للتصوير الفارسي . وهذا الأثر — فوق ذلك — يقوم مقام شهادة عظيمة المأن في مسألة كثر فيها النقاش ، وهي تمثيل الأحياء في الإسلام ، أمحرم هو أم مباح ؟ ولهذه المنمنمة فضل أخير إذ تفتق أفقاً جديداً لاستطلاع أصول زاخرة لفن ديني يثبت بالرسوم والأصباغ حركات نفس منجذبة على سمو.

بشر فارس

---

(١) شتوكين : المخطوطات المزوقة الاسلامية في دار الكتب بالقاهرة في مجلة Gazette des Beaux-Arts سنة ١٩٣٠ ، ج ١ ، ص ١٣٨ وما يليها .

هلتر : « المخطوطات الاسلامية المنمنة ... » لايبتسج ١٩٣٧ ، ص ١٥ ، رقم ٣٦ ب .

غستان ، كرتس ، اتنجهوزن : « تعليقات مضافة الى سرد هلتر ... » في مجلة Ars Islamica سنة ١٩٤٠ ، ج ٧ ، قسم ٢ ، ص ١٥٣ ، رقم ٣٦ ب .

(٢) فهرست الكتب العربية الموجودة بالكتبخانة الخديوية ، القاهرة ١٣٠٧ (١٨٨٩) ، ج ، ص ٢٠٩ ، ب ؛ فهرس دار الكتب ، القاهرة ١٩٢٧ ، ج ٣ ص ١٩ .

(٣) أما الجزء الثالث عشر المعروم من أوله (ورد هذا في البيان المذكور وقد حققته) فساعة منمنمته بذلك.

(٤) أحمد موسى : « في تاريخ تصوير الكتب الاسلامية بمصر » (بالالمانية) ، برلين ١٩٣١ ، اللوحان ١٦ و ١٧ ، النص ص ٣٨ — ٤٠ .

(٥) هلتر : « مخطوطة جالينوس ... » في مجلة Jahrbuch der kunsthist. Samml. in Wien ج ١١ سنة ١٩٣٧ ، اللوح ٦ (١ و ٢) .

(٦) هلتر : « المخطوطات الاسلامية المنمنة ... » رقم ٣٦ ب . غستان ... « تعليقات مضافة الى سرد هلتر ... » رقم ٣٦ ب .